حكمة أبي تمام *

للأستاذ محمد خلف الله أحمد

هل كان « أبو تمام » شاعراً حكيما ؟ هذه قضية أثارها القدماء من شعراء العروبة ونقادها .

ولعل أوضح عرض فى القديم لهذه القضية هو الذى أورده « ضياء الدين ابن الأثير » فى كتابه « المثل السائر » : فقد جدثنا أنه حين نظر فى الشعر العربى الجدير بالدراسة والحفظ ، منذ العصور الأولى الى أيامه فى القرن السابع الهجرى ، ألفاه بحراً لا يوقف على ساحله (١)، فلما أراد أن يقتصر منه على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده ، وجد كفايته من هذا فى شعر « أبى تمام » و « البحترى » و « المتنبى » ، الذين حوت أشعارهم — كما يقول — « غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء » .

فالشعراء الثلاثة — فى نظر ابن الأثير — اذن كانوا أصحاب حكمة . ولكنه لا يمضى بضعة أسطر فى هذا الحديث حتى يدخل على حكمه بعض تحديد وتخصيص ، اذ يقرر رضاه واتفاقه مع المتنبى فيما نسب اليه .. وقد سئل عن أبى « تمام » و « البحترى » وعن نفسه ، فقال « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى » . وهذه العبارة منسوبة فى بعض كتب الأدب كذلك الى « أبى العلاء المعرى » . فقد رووا أنه سئل : أى الثلاثة أشعر ، « أبو تمام » أم « البحترى » أم « المتنبى » ؟ فقال : « المتنبى وأبو تمام حكيمان ، والشاعر البحترى » . ولسنا ندرى أكان « أبو العلاء » — ان صحت

---

* بحث أعد بتكليف من المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، وألقيت خلاصته فى مهرجان الشعر وحفل ذكرى أبى تمام الذى أقامه المجلس فى دمشق من ١٢ الى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٦٠

نسبة هذا القول اليه ـ مردداً العبارة المنسوبة للمتنبي أم مبتدئاً حكماً من عنده . ومهما يكن من شيء فالعبارة ومداولها محل نظر ، وهي تثير ضروباً من التساؤل عن الشاعرية وطبيعتها ، وصنة الشعر بالحكمة ، ونصيب كل من الشعراء الثلاثة من العبقرية الشعرية . ويبدو أن « ابن الأثير » حين أعلن موافقته على الحكم المنسوب للمتنبي والمعرى انصرف ذهنه الى تفسير هذا الحكم في ضوء التفرقة الفنية التي يعقدها بين أبي تمام والمتنبي من جهة ، والبحتري من جهة أخرى . فأبو تمام ـ كما يقول ابن الأثير ـ رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الاغراب ، الذي برز فيه على الأضراب ... « وأبو الطيب المتنبي » أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فتقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالابداع في وصف مواقف القتال ... وذلك أنه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا والسلاحين قد تواصلا ... « وأما أبو عبادة البحتري » فانه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرق الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينا يكون في شظف نجد اذ تشبث بريف العراق » . ويلخص ابن الأثير الفرق بين المذهبين وهو جوهر مفهوم القضية التي نحن بصددها فيقول : « وذلك أني وقفت على أشعار الشعراء قديماً وحديثاً ، حتى لم أترك ديواناً لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك الا وعرضته على نظري ، فلم أجد أجمع من ديوان « أبي تمام وأبي الطيب » للمعاني الدقيقة ، ولا أكثر استخراجاً منهما للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيباً للألفاظ من « أبي عبادة » ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكاً ... » .

هذه هي القضية في اطارها القديم . وسنحاول هنا أن ندرس الجانب الخاص منها بأبي تمام ، فنبحث طبيعة الحكمة المنسوبة اليه ، ونتبين مظاهرها في شعره ، ومكانها في ميزان شاعريته ، ونشير الى صلتها بطريقته الفنية

من جهة ، وسمات شخصيته وألوان ثقافته من جهة أخرى . ثم نبني على هذا البحث توجيهاً للقضية وتحديداً لدلالتها .

-- — —

ان كلمة الحكمة من الألفاظ الواسعة الاستعمال الكثيرة الدوران فى أدبنا الكلاسيكى (الى جانب استعمالها الخاص فى النظر الفلسفى والأخلاقى - وهو خارج عن دائرة بحثنا هنا) ، فهى ترد فى القرآن الكريم مقرونة فى بعض المواضع بالكتاب أو النبوة أو العلم أو الموعظة الحسنة . وتوصف فى بعض الآيات بأن من يؤتها فقد أوتى خيراً كثيراً ؛ وترد فى حديث مشهور فى معرض الكلام عن الشعر ، نصه « ان من الشعر لحكمة » ، وفى رواية « لحكماً » ؛ ويسمى « الأعشى » القصيدة المحكمة حكيمة فيقول :

وغريبة تأتى الملوك حكيمة قد قلتها ليقال : من ذا قالها ؟

ولهذا تتوسع معاجم اللغة فى ايراد الظلال المتنوعة لمعانى هذه الكلمة فتقول(٢)

« الحكمة عبارة عن معرفة الأشياء بأفضل العلوم ؛ ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها : حكيم ، والحكم والحكمة : من العلم ؛ والحكم : العلم والفقه والقضاء بالعدل ؛ والحكيم : العالم وصاحب الحكمة والمتقن للأمور » .

وههنا من هذه المعانى اثنان سنفيد منهما حين نشق طريقنا فى كشف حكمة أبى تمام : أولها ما فسرت به الكلمة فى الحديث المشار اليه : ان من الشعر لحكمة ، فقد قال شراح الحديث : ان معناه أن فى الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما ، وقالوا أراد بها المواعظ والأمثال التى ينتفع الناس بها .

وهذا المعنى عريق الأصالة فى فهم العرب لطبيعة الفن الشعرى ، فقد وصفوا الشعر بأنه ديوان العرب ، وأنه أداة من أدوات التثقيف وصقل النفوس والهداية الى شريف الأمور .

كتب « عمر بن الخطاب »(٣) رضى الله عنه الى أبى « موسى الأشعرى » يقول : « مر من قبلك يتعلم الشعر ، فانه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب » . وقال « معاوية » : « يجب على الرجل تأديب ولده والشعر أعلى مراتب الأدب » ، وقال : « اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم ، فلقد رأيتنى ليلة الهرير بصفين ، وقد أتيت بفرس أغر محجل ، بعيد البطن من الأرض . وأنا أريد الهرب لشدة البلوى ، فما حملنى على الاقامة الا أبيات عمرو بن الاطنابة » :

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
واقحامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت ... مكانك تحمدى أو تستريحى !
لأدفع عن مآثر صالحات ... وأحمى بعد عن عرض صحيح

والمعنى الثانى الذى سنفيد منه فى توضيح حكمة أبى تمام هو العلم ومعرفة الأشياء واحسان دقائق الصناعات واتقانها ؛ وهو معنى يتصل بجوهر طريقة أبى تمام الشعرية فى صناعتها وبديعها كما سنبين بعد .

فأما جانب الأمثال وتجارب الحياة وثمار الفكر الانسانى العميق ، فانه بارز فى شعر « أبى تمام » ؛ وشىء من الصبر فى متابعة هذا الشاعر وتدبر كلماته النادرة يضاعف لصاحبه المتعة والفائدة . فمن أراد — مثلا — أن ينظر نظرة فى مسلك الأيام ، وفى الحياة وما تأخذ وتعطى ، وفى فلسفة الاقامة والاغتراب ، فليستعد فى ذاكرته ذلك الجزء المشهور من دالية أبى تمام فى مدح أبى سعيد محمد بن يوسف الطائى(٤) الذى يقول فيه :

ولكننى لم أحو وفراً مجمعاً ... ففزت به الا بشمل مبدد
ولم تعطنى الأيام يوماً مكنأً ... ألذبه الا بنوم مشرد
وطول مقام المرء فى الحى مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدد
فانى رأيت الشمس زيدت محبة ... الى الناس أن ليست عليهم بسرمد

وشعر أبي تمام غني بمثل هذه النظرات التأملية في سيرة الأيام : فهذا الدهر في رأي شاعرنا — يسوسنا سياسة سدى لم يسسها قط عبد مجدع ، وكل يوم تروح علينا خطوبه وتغتدي ، والحظ يعطاه غير طالبه . ويحرز الدر غير محتلبه ، والفتى ينال من دهره وهو جاهل ، ويكدى وهو عالم :

ولو كانت الأقسام تجرى على الحجى هلكن اذاً من جهلن البهائم

فاذا انتقلنا من هذا الى وادي الناس ومعاملاتهم ، وصداقاتهم وتحاسدهم وتفاوت هممهم وحظوظهم من المجد والفضل ، رأينا لشاعرنا لوحات جميلة لا يزيدها مر الزمان الا جدة وتأثيراً . فمن منا لا يحلو له أن يتمثل في الأخوة الأدبية بمثل قول « أبي تمام » في صديقه الشاعر « علي بن الجهم »(٥) :

إن يُكد مطّرف الاخاء فاننا نغدو ونسرى في اخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وكم من موقف في الحسد والحساد ذكرنا بقول أبي تمام — وهو مشهور محفوظ :

واذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف قدر طيب العود (٦)

وهذا الجانب كذلك في شعر أبي تمام يضيق عن الحصر : فشر السجايا قدرة جارها حقد

والحمد برد جمال اختالت به غرر الفعال وليس برد لباس

وحرب الهم حرب ضروس ، وأقل الأشياء بحصول نفع . صحة القول والفعال مريض ، والصبر ما عُوضه امرؤ الا رأى ما فاته دون ماعوضه ، وذو النقص في الدنيا بذي الفضل مولع .

ولم يحفظ مضاع المجد شيء من الأشياء كالمال المضاع

والسيف أصدق أنباء من الكتب ، وهمة أسود الغاب يوم الكريهة فى المساوب لا فى السلب ، والراحة الكبرى لا تنال الا على جسر من التعب ، والسباحة صيقل الأحساب ، والمرء اذا لم يستخلص الحزم نفسه فلدروته للحادثات وغاربه .

ومما كانت الحكماء قالت لسان المرء من خدم الفؤاد

والحر يجتنب المخازى ، ويحميه عن الغدر الوفاء ؛ وما من شدة الا سيأتى بعدها رخاء ؛ وطلب المجد يورث المرء خبلا وهموماً تقتل الحيزوم ، وصريح الرأى والحزم لمن بلغته الشمس أن يتحول ؛ وقد ينعم الله بالبلوى وان عظمت ، ويبتلى بعض القوم بالنعم .

هذه الأمثلة المنثورة التى سقناها تتصل بناحية الموعظة والمثل والنظرة الفاحصة ، والتجربة الموجزة . ولكن جانب دلالة الشعر على معالى الأمور ، وتخليده للمآثر الصالحات ، وأثره فى القدوة النافعة باب مهم من أبواب الحكمة عند « أبى تمام » ، ولعل « حبيب بن أوس » أكبر شاعر فى العربية قرر هذه الصلة بين القوافى والمساعى تقريراً واضحاً ، وألح عليها بأنواع التأكيد والتكرار ، ووقف منها موقف صاحب النظرية من نظريته ، واتخذ منها ميداناً لعرض طائفة من نماذج البطولة العربية المسامة ، فى مجدها وبأسها ونداها وحماستها ، وحفلها بالأدب ورعايتها للشعراء ، كما بنى عليها دفاعه عن الشعر ، واعتزازه به ، وتذكيره بفضله على الممدوحين . واذا أردنا قصيدة من قصائد أبى تمام تمثل هذا الاتجاه النفى فى مختلف عناصره ، وتوضح ما ذهبنا اليه من أن شاعرنا كان صاحب فكرة آمن بها وطبقها ، فى طبيعة الشعر وصلته بالحياة ، وجدنا نموذجاً صالحاً من ذلك فى داليته (٧) التى مدح بها « خالد بن يزيد بن مزيد الشيبانى » والتى مطلعها :

طلل الجميع لقد عفوت حميداً وكفى على رزئى بذلك شهيداً

فهذه القصيدة تبدأ كالمألوف بالحديث الى الأطلال والدمن ، وتكشف عن طبيعة التجديد الذى أدخله أبو تمام على هذه السنة العربية القديمة ،

وتزيدنا علماً بعناية الشاعر العباسي بفحول شعراء الجاهلية : من أمثال الملك المضلل ذى الهوى والأعشيين وطرفة ولبيد ، وتعرض علينا رأى الشاعر فى الغانيات واقبالهن وصدودهن وأحلى الرجال مواقع منهن ، ثم تعطينا نموذجاً من المدح العربى الذى يرسم صورة للرجولة والحسب والشرف الأصيل والبلاء الحسن يوم الروع ، وهى صورة جديرة بالخلود ، وأمثالها فى شعر « أبى تمام » كثير . يقول أبو تمام :

نسب كأن عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن فلق الصباح عموداً
عربان ، لا يكبو دليل من عمى ... فيه ولا يبغى عليه شهودا
شرف على أولى الزمان وانما ... خلق المناسب أن يكون جديدا
لو لم تكن من نبعة نجدية ... علوية لظننت عودك عودا
« مطر » أبوك أبو أهلة « وائل » ... ملأ البسيطة عدة وعديدا
أكفاءها تلد الرجال ، وانما ... ولد الحتوف أساودا وأسودا
ورثوا الأبوة والحظوظ فأصبحوا ... جمعوا جدوداً فى العلى وجدودا

الى أن يقول :

ليس للشجاعة انها كانت له ... قدماً نشوءاً فى الصبا ولدودا
بأساً قبيلياً وبأس تكرم ... جسم وبأس قريحة مولودا
واذا رأيت « أبا يزيد » فى ندى ... ووغى ومبدىء غارة ومعيدا
يقرى مرجيه مشاشة ماله ... وشبا الأسنة ثغرة ووريدا
أيقنت أن من السماح شجاعة ... تدمى ، وأن من الشجاعة جودا

وتستمر القصيدة فى هذا التصوير البطولى الى أن تصل الى المقطع الثالث الذى يهمنا فى موضوعنا هنا ، والذى يقرر فيه الشاعر الصلة بين القوافى والمعانى ، فيقول :

ان القوافى والمعانى لم تزل ... مثل النظام اذا أصاب فريدا
هى جوهر نثر ، فان ألفته ... بالشعر صار قلائداً وعقودا
فى كل معترك وكل مقامة ... يأخذون منه ذمة وعهودا

فاذا القصائد لم تكن خضراءها لم ترض منها مشهدا مشهودا
من أجل ذلك كانت العرب الأولى يدعون هذا مؤبداً محمودا
وتند عندهم العطى الا على جعلت لها مرر القصيد قيودا

هذه القصيدة — مهما يقل بعض النقاد فى اغراب أبى تمام وتعقيده — تجد طريقها سهلا ميسراً الى الذوق الحديث .

وقد أعجب بها القدماء وسجلوا ذلك الاعجاب فى مختلف المناسبات . أورد الصولى فى كتابه أخبار أبى تمام(١) الخبر التالى : حدثنى على بن اسماعيل قال : كنت عند البحترى فأنشدته ، وهو كالمفكر :

أحلى الرجال من النساء مواقعاً من كان أشبههم بهن خدوداً

فقال البحترى : ما هذا ؟ وهو فزع ، فقلت له : ألا تعرفه .. هذا لأبى تمام . فقال : أذكرتنى والله ومسررتنى ، لا يحسن هذا الاحسان أحد غيره » . وروى أبو هلال العسكرى فى مقدمة كتابه : « ديوان المعانى »(٢) أن بعض من ينتحل الأدب كان يريد الدخول فى جملة « أبى الفضل بن العميد » لمنادمته وشفع له فى ذلك جماعة من بطانته ، فأحضره يوماً ، وفاوضه ليقف منه على مقداره فى المعرفة ، فقال له فيما قال : ما أحسن ما قيل فى صفة الشعر ؟ فبقى ملياً يتفكر . فقال له أبو الفضل : « رفقاً .. عند خاطرك .. حُداجة » (يريد أنه بطىء أشد البطء فى تفكيره) ثم قال — لأبى هلال : هات أيها الشيخ فذكر أبو هلال أحسن ما قال فى ذلك ، ثم أورد لأحسن ما قاله محدث نموذجين لأبى تمام : أحدهما ستة أبيات من الدالية المشار اليها ، وهى التى تبدأ بقوله :

ان القوافى والمساعى لم تزل مثل النظام اذا أصاب فريداً

قال : وبقى الرجل لا يفيض بكلمة ثم خرج ولم يعد . والظاهر أن « أبا هلال » كان معجباً بالدالية كلها فقد استشهد منها فى كتابه مرتين أخريين على الأقل احداهما فى باب المديح الجيد : بالأبيات الأربعة التى أولها :

واذا رأيت أبا يزيد فى نـــدى ووغى ومبدىء غـارة ومعيداً

والثانية فى أجود ما قيل فى قدم الشرف ووضوح النسب : بالأبيات السبعة التى أولها :

نسب كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عمـوداً

وهذه الصلة التى وقفنا عندها بين القوافى والمعانى تكررت الاشارة اليها فى صور وأشكال متنوعة فى شوارد قصائد « أبى تمام » - فمرة يقول فى مدح « عمر بن مالك بن طوق (١٠) :

نفق المديح ببـابه فكسوته عقداً من الياقوت غير مثقب
أولى المديح بأن يكون مهذباً ما كان منـه فى أغر مهذب
غربت خلائقه وأغرب شاعر فيه فأحسن مُغرب فى مغرب
لما كرمت نطقت فيك بمنطق حسن فلم آثم ولم أتحـــوب

ومرة يقول لأبى دلف (١١) :

اليك أرحنا عازب الشعر بعد ما تمهل فى روض المعانى العجائب
غرائب لاقت فى فنائك أنسها من المجد فهى الآن غير غرائب

وثالثة يقول « لاسحق بن ابراهيم بن مصعب »(١٢) :

احفظ وسائل شعر فيك ما ذهبت خواطف البرق الا دون ما ذهبا
يغدون مغتربات فى البلاد فما يزلن يؤنسن فى الآفاق مغتربا
ولاتضعها فما فى الأرض أحسن من نظم القوافى اذا ما صادفت حسبا

ورابعة يقول « لابن أبى دواد » (١٣) :

ولم أر كالمعروف تدعى حقوقه مغارم فى الأقوام وهى مغـانم
ولا كالعلا : ما لم يُر الشعر بينها فكالأرض غفلا ليس فيها معالم
فما هو الا القول يسرى فيهتدى له غـرر فى أوجـه ومواسم
يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويرضى بما يقضى به وهو ظالم

تداركه ان المكرمات أصـابع ... وان حلى الشعر فيها خـواتم
اذا أنت لم تحفظه لم يك بدعة ... ولا عجباً أن ضيعته الأعاجم
فقد هز عطفيه القريض توقعاً ... لعدلك مذ صارت اليك المظالم
ولولا خلال سنها الشعر ما درى ... بغاة الندى من أين تؤتى المكارم

وهكذا يصر « أبو تمام » على المزاوجة بين الشعر والمجد : فاذا ألبسه الممدوحون من أمهات تلادهم ألبسهم هو من أمهات قلائده ، واذا بلغوا هم الشأو فى المجد ، جهد هو حتى يبلغ الشعر شأوه فى مدحهم ، وحتى يحمدهم عنه عدوهم . ونظم فيهم قصائد سياحة تساق من غير سائق ، وتنقاد فى الآفاق من غير قائد ، محفة لا تقرع أذن سامع الا قال : أحسن والله : فيجيبه الحضور صدقت والله .

غرائب ما تنفك فيها ليـــاقة ... لمرتجز يحدو ومرتجل يشـدو

يهان فيها ما فى البدور ، وتكرم قوافيها لدى أشراف الناس كما يكرم الوفد . شوارد جديدة المعنى ، تغادر حظ الرجال من القصيد خبيـاً ، كالنجم ان سافر الممدوح كان له مواكباً ، واذا حط الرحل كان له جليساً .

وما دامت القوافى والمعانى قريبة للمحامد والمساعى على هذه الصورة ، فمن حق « أبى تمام » أن يعتز بها فى غير زهو ولا خيلاء . وأن يذكر ممدوحيه بأنها باقية على الدهر ، وأن يكرر ما قاله « عمر بن الخطاب » من قبل لأحد أبناء هرم بن سنان فى مدائح زهير : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم . يقول أبو تمام مخاطباً أحمد بن أبى دواد » :

كم معسان وشيتها فيك قد أمست ... وأصبحت ضـرائراً للريـاض
بقوافٍ هى البواقى على الدهر ... ولـكن أثمانهن مـواض

ويقول فى شكر خلعة خلعها عليه « محمد بن الهيثم »(١٤) :

سوف أكسوك ما يعفى عليها ... من ثناء كالبرد برد الصناع
حسن هاتيك فى العيون وهذا ... حسنه فى القلوب والأسماع

ويقول « لمالك بن طوق »(١٥) :

يا خاطبا مدحي اليه بجوده ... ولقد خطبت قليلة الخطاب
خذها ابنة الفكر المهذب في الدجى ... والليل أسود رقعة الجلباب
بكراً تورث في الحياة ، وتتقي ... في السلم وهي كثيرة الأسلاب
ويزيدها مر الليالي جدة ... وتقادم الأيام حسن شباب

وهذا الاعتزاز بالشعر وخلوده ليس مجرد اعجاب شاعر بشعره ، ولكنه مظهر فكرة في الشعر والحياة يشارك أبا تمام فيها بعض ممدوحيه ممن كانوا يقدرون الأدب حق قدره . ذكر الصولي (١٦) أن « أبا تمام » لما أنشد « أبا دلف » البائية التي أوردنا أبياتاً منها .. ووصل فيها الى قوله :

مكارم لجت في علو كأنما ... تحاول ثأراً عند بعض الكواكب

قال « أبو دلف » لقومه : يا معشر « ربيعة » ، ما مُدحتم بمثل هذا الشعر قط ، فما عندكم لقائله ؟ قال : فبادروه بطارفهم وعمائمهم يرمون بها اليه ، فقال « أبو دلف » : قد قبلتها وأعاركم لبسها ، وسأثوب في ثوابه عنكم ، تم يا أبا تمام ، فلما بلغ الى قوله :

ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت ... حيائك منه في العصور الذواهب
ولكنه صوب العقول اذا انثنت ... سحائب منه أعقبت بسحائب

قال « أبو دلف » : ادفعوا الى أبي تمام خمسين ألف درهم ، والله انها لدون شعره . ثم قال له : ما مثل هذا القول الا ما رثيت به « محمد ابن حميد » . قال : وأي ذلك أراد الأمير ؟ قال : قولك :

وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر

الى قوله :

يعزون عن ثاو تعزى به العلا ... ويبكى عليه الجود والبأس والشعر

وددت والله أنها لك في ، فقال : بل أفدى الأمير بنفسي وأهلي ، وأكون المقدم قبله ، فقال له : لم يمت من رثى بمثل هذا الشعر .

هذه الحكمة – أو بعبارة أخرى – هذا القران الذى يعقده أبو تمام بين الشعر والمجد ، تمت الى الحكمة الاتقانية أو صناعة البديع التى كان « أبو تمام » فارس حلبتها ، برابطة قرابة ورحم تأثير متبادل ، فأبو تمام ورجال مدرسته من شعراء المعانى(١٧) كانوا قوماً ذوى فن واتقان ، يعالجون الفكر والمواقف ونماذج الشخصيات الانسانية كما يعالج المصور أو المثال أو الروائى موضوع فنه . وهم يتبعون المعانى حيثما قادتهم . ويغوصون دائماً وراءها الى الأعماق ، حتى اذا ظفروا بها عكفوا عليها تأملا وتدبراً ، وشحذوا لها كل أدواتهم الفنية ، من تمثيل وتخييل وتشخيص ، ثم عرضوها على الناس فى صور ، يتطلب تذوقها اعمال الفكر وقدراً من الصبر والروية . وكان من الطبيعى – فى عصر يعج بالأحداث السياسية ومواقف البطولة والدفاع عن حوزة الاسلام ضد أعدائه . أن تجد هذه الصناعة نماذجها ومجالاتها فى الخلفاء والقواد والوزراء وكبار رجال الدولة ، وأن ينجح « أبو تمام » فى أن يتخذ من هؤلاء فصولا فى كتاب الخلود العربى والمجادات الاسلامية . ثم كان من الطبيعى من جهة أخرى أن يتطلب تصوير تلك النماذج البطولية صاحب فن مستأن متمهل ، كأبى تمام ، يصطنع له الجد والحذق ، ويختار له القوالب المناسبة والظلال والأنغام المتساوقة . فكان من ذلك كله تلك العلاقة الوثيقة بين صناعة البديع واتجاه الشعر الى تعليم الناس كيف تبنى العلا والمكارم .

ومن الواضح أن هذا الاتجاه الفنى لا يبلغ ما ينشد من نجاح وابداع الا اذا توافرت لصاحبه عناصر تتصل بالحكمة اتصالا وثيقاً ، وتؤلف أدواتها ومادتها : من حس دقيق وذكاء لماح ، ويد صناع . وثقافة فكرية وأدبية واسعة ، وخبرة بالحياة والناس شاملة .

وقد اتفق الباحثون من قدامى ومحدثين على أن حظ أبى تمام من هذه كان عظيما ، كما تدل على ذلك مختاراته وكتبه من جهة ، واشاراته الأدبية والتاريخية والفكرية والدينية فى قصائده من جهة ثانية ، والمواقف والشهادات والاستشهادات التى سجلتها كتب الأدب والنقد من جهة ثالثة .

فأما من حيث الذكاء ، فقصة « أبي تمام » مع الفيلسوف « الكندى » مشهورة وهي تبرز قوة عارضة الشاعر وسرعة بديهته ، وتسجل شهادة الفيلسوف له بالذكاء الخارق القاتل . و « إلى جانب هذا الذكاء — كما يقول طه حسين — (١٨) كان أبو تمام حاد الشعور ، وكان يحس الأشياء حساً سريعاً ، ويتأثر بها تأثراً عميقاً ، ثم لم يكن ذكاؤه يمتاز بهذه الحدة فحسب ، وانما كان يمتاز بشيء من العمق لم يكن لغيره من الشعراء ، فأبو تمام لم يكن كغيره إذا تعرض لشيء أخذ منه مايبلو أخذا سريعا ، لكنه كان إذا تعرض لمعنى من المعانى تعمقه ... » . وأما ثقافة أبي تمام الأدبية الواسعة ، فتشهد لها تلك المجموعات من الاختيارات المشهورة (١٩) التي أثرت عنه والتي خلدت كثيراً من شعر القبائل ، ومن محاسن شعر الجاهلية والاسلام ومن شعر الحماسة العربية . و « هذه الاختيارات » كما يقول « الآمدى » — تدل على عنايته بالشعر ، وانه اشتغل به وجعله وكده . واقتصر من كل الآداب والعلوم عليه ، فانه ما من شيء كبير من شعر جاهلى ولا اسلامى ولا محدث الا قرأه واطلع عليه ... » ، ويحدث محمد بن يزيد « المبرد » فيقول :

« ما سمعت « الحسن بن رجاء » ذكر قط « أبا تمام» الا قال : ذاك أبو التمام ؛ وما رأيت أعلم بكل شيء منه » . ويروى بعضهم عن « البحترى » قوله : « والله يا أبا الحسن لو رأيت أبا تمام الطائى لرأيت أكمل الناس عقلا وأدباً ، وعلمت أن أقل شيء فيه شعره . ويسجل « ابن المعتز » — فى معرض حديثه عن ناقدى أبي تمام وحساده أثر شعره فى النفوس فيقول : « ومن عاب مثل هذه الأشعار التي ترتاح لها القلوب وتجذل بها النفوس وتصغى اليها الأسماع ، وتشحذ بها الأذهان ، فانما غض من نفسه ، وطعن على معرفته واختياره »(٢٠) . وتذكر بعض الروايات أن « أبا تمام » كان يقظ الحس لكل معنى شعرى — حتى وان جاء على ألسنة العامة ، فكان يضم ما يسمع ويرى الى ذخيرته الذهنية ، ثم يعود اليه بعين الفكر الفاحصة وقلم التصوير البارع ليعرضه بعد فى معرض شعره ، الحافل بدقيق الصور ومعجب النماذج . وأما العبقرية الصناع عند أبي تمام فيشهد لها ذلك المكان البارز الذى خصصه مؤلفو النقد والبلاغة « كأبي هلال » و « عبد القاهر » و « ابن الأثير » لشواهد الكلام الجيد والحكمة السائرة من شعر أبي تمام .

وتشهد لنا تلك اللوحات الفريدة التي رسمها قلم الشاعر للأشخاص الذين مدحهم ، والمواقف التي سجلها ، والمعاني والأشياء التي وصفها وصورها ، مما أشرنا الى بعضه في سياق هذا البحث . ومما أورده المتقدمون في كتبهم ومختاراتهم ، رغم ما كانوا يأخذون أحياناً على أبي تمام من تعقيد واغراب ، ورغم ما كان بعضهم ينسبه اليه من اتكاء على سابقيه من الشعراء .

نستطيع الآن — بعد أن رسمنا الخطوط الأساسية لمظاهر حكمة « أبي تمام » ، أن نقول إنها حكمة ذات شعبتين : الأولى حكمة المعرفة والتجربة والمثل السائر والفكرة العامة ، والثانية حكمة الدقة والصناعة والبديع والاتقان الفني والقدرة على تصوير النماذج الانسانية في البطولة والمجد واليأس والندى . ونستطيع أن نستعرض كذلك أن « المتنبي » و « المعري » حين تحدثا عن شعر الحكمة — وحين فرقا بين « أبي تمام » و « أبي الطيب » من جهة — و« أبي عبادة البحتري » من جهة أخرى ، انما قصدا في الأغلب الى هذين المعنيين اللذين يتمثلان في تتبع المعاني ، والعناية بتصويرها ، والوقوف عند مغازي الأمور ومحاولة الربط بين ظواهر الحياة ، والكشف عن أسرار التجارب .

ومن الواضح أن ألواناً كثيرة من الشعر تندرج تحت هذا المفهوم الواسع للحكمة ، وأن كثيراً من الشعراء في مختلف الأزمنة والأمم يعدون على هذا من أصناف الحكماء ، على تفاوت حظوظهم واتجاهاتهم من الحكمة حسب أمزجتهم وثقافاتهم وظروف بيئاتهم وحيواتهم .

هوامش البحث ومراجعه

(١) ضياء الدين بن الأثير : « المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر » ، ط. بولاق القاهرة ١٢٨٢هـ ، ص ٤٧٠–٤٧٢

(٢) « لسان العرب » مادة : سكك .

(٣) ابن رشيق القيروانى : « العمدة فى محاسن الشعر وآدابه » ، ط. القاهرة ١٩٣٤م جـ ١ ، ص ١٥–١٦

(٤) ديوان أبى تمام : تحقيق م. عبده عزام ، ط. دار المعارف ، مصر ، المجلد الثانى القصيدة ٤٦ ، وأولها :

سرت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد تقـــادا عندها كل مرقـــد

(٥) أبو بكر الصولى : أخبار أبى تمام ، ط. القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٦٢

(٦) لعبد القاهر الجرجانى تعليق لطيف عن هذين البيتين فى معرض الكلام عن مواقع التمثيل وتأثيره : فهو يقول : واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل اذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ، وفللت عن صورها الأصلية الى صورته ، كساها أبهة ، وكسبها منقبة ، ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها فى تحريك النفوس لها ، ودعا القلوب اليه ، واستثار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفاً ... وهكذا ، فتأمل بيت أبى تمام :

واذا أراد الله نشـــر فضيـــلة طويت أتاح لهـــا لسان حســـود

مقطوعاً عن البيت الذى يليه ، والتمثيل الذى يؤديه ، واستقص فى تعرف قيمته على وضوح معناه وحسن مزيته ، ثم أتبعه اياه :

لولا اشتعال النـــار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العـــود

وانظر هل نشر المعنى تمام جلته وأظهر الكنوز من حسنه وزينته وعطرك يعرف عوده ، وأراك النضرة فى عوده ، وطلع عليك من مطلع سعوده ، واستكمل فضله فى النفس وبذله ، واستحق التقديم كله ، الا بالبيت الأخير وما فيه من التمثيل والتصوير » .

(أسرار البلاغة ، ط ٢ – القاهرة ١٩٢٥ ، ص ٩٢–١٠٠) .

(٧) القصيدة ٤٠ من ديوان « أبى تمام » – المجلد الأول .

(٨) أبو بكر الصولى : « أخبار أبى تمام » ، ص ١٠٦–١٠٨

(٩) أبو هلال العسكري : « ديوان المعاني » ، ط. القاهرة ١٣٥٢هـ ، ص ٧

(١٠) القصيدة (٥) من ديوان أبي تمام – المجلد الأول ، وأولها :

أحسن بأيام الغضا وأطيب والعيش في أظلالهن المعجب

(١١) القصيدة (١٥) من الديوان ، وأولها :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

(١٢) القصيدة (١٧) من الديوان ، وأولها :

قل للأمير الذي قد نال ما طلبا ورد من سائف المعروف ما ذهبا

(١٣) يوسف البديعي : « هبة الأيام فيما يتعلق بأبي تمام » ، ط. القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٨٥–٩٠

(١٤) يروى الصولي أن محمد بن الهيثم بعد سماع هذه القصيدة قال : من لا يعطى على هذا ملكه والله لابق في داري ثوب إلا دفعته إلى أبي تمام ، فأمر له بكل ثوب يملكه في ذلك الوقت (أخبار أبي تمام ص ١٩٠) .

(١٥) القصيدة (٤) من الديوان ، المجلد الأول ، ومطلعها :

لو أن دهراً رد رجع جواب أو كف من شأويه طول هتاب

(١٦) أبو بكر الصولي : أخبار أبي تمام ، ص ١٢١ وما بعدها .

(١٧) راجع في صناعة أبي تمام :

(أ) طه حسين : « من حديث الشعر والنثر » ، ط. القاهرة ١٩٣٦م .

(ب) نجيب محمد البهبيتي : « أبو تمام الطائي ، حياته وحياة شعره » ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٥م .

(ج) شوقي ضيف : « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » – القاهرة ١٩٤٣م .

(د) عمر فروخ : « أبو تمام شعر الخليفة محمد المعتصم بالله » ، ط. بيروت ١٩٣٥م .

(١٨) طه حسين : « من حديث الشعر والنثر » ، ص ١٦١

(١٩) أبو القاسم الآمدي : « الموازنة بين أبي تمام والبحتري » ، ط. القاهرة ، ١٩٤٤م ص ٤٦–٤٧

(٢٠) أبو بكر الصولي : أخبار أبي تمام ، من ١٧١–١٧٧